الفصل الثالث

العقل والاعتقاد فى الحضارة اليمنية

مسألة التلازم والاختلاف أو التناقض بين فكرة العقل من جهة والاعتقاد من جهة اخرى فى حياة وتاريخ المجتمعات الإنسانية هى من الأمور البديهية التى شغلت معظم جهود المفكرين والفلاسفة فى كل المجتمعات ، على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم ، وعبر مراحل التاريخ المختلفة ، باعتبار أن العقل يقف دائماً على طرفى نقيض مع فكرة الاعتقاد ، حيث يمثل العقل دائماً المقياس الإيجابى المتجدد لفكر الإنسان وتصرفاته تجاه نفسه وتجاه الطبيعة من حوله ، بينما تشكل فكرة الاعتقاد الجانب السلبى فى ذلك ، والتى تضفى على كل شىء فى الطبيعة والمجتمع صفة الثبات والسكون وتنفى عنه خاصية التغير ، إنطلاقاً من رفض إستخدام منطق العقل البشرى وملاحظاته الحرة ، بناء على افتراض أنه عاجز عن القيام بمثل ذلك ، والاكتفاء بالاستسلام لمقاييس ذهنية وميتافيزيقية مفترضة عشوائياً ، وخارجة عن منطق العقل وقوانين الطبيعة ، ويظل دائماً الاختلاف بين هذين الطرفين نسبياً من مجتمع لآخر ومن مرحلة تاريخية لأخرى. ويهمنا الآن أن نبحث عن هذا التناسب بين العقل والاعتقاد فى حياة المجتمع اليمنى القديم فى ضوء افتراض أولى نغلب فيه نزعة العقل على نزعة الاعتقاد فى تاريخ المجتمع اليمنى بصفة عامة حتى اليوم وذلك من خلال الفقرات الآتية :

الفرض الأول

إن الفرض العلمى الذى سنبدأ بتسجيله فى هذا الشأن هو أن التراث الإجتماعى والحضارى للمجتمع اليمنى الرسمى منه أو الغير رسمى[1] قد اتسم إجمالا بشيوع

---

(١) المقصود بالتراث الرسمى هو كل مايتعلق بالتنظيمات والأفكار والأفعال المقننة عن طريق النظام الرسمى للدولة فعلا من سياسة واقتصاد وقانون وديانة وماينجم عن كل ذلك من مخلفات=

العقلانية ، وضعف الجانب الاعتقادى ، والميل المباشر إلى التحكم فى مظاهر الطبيعة ، والصراع المادى والحسى معها ، فى محاولة إثبات وتأكيد تفوق الإنسان من ناحية وتوفير إحتياجات بقائه المباشرة وتطوره الغير مباشر من ناحية أخرى ، كما يتميز هذا التراث أيضاً بمرونة وقابلية عجيبة للأخذ والعطاء والتغيير ؛ واستبدال المواقف الفكرية والاجتماعية بسهولة ، والمقرون بنزعة ورغبة مسرفة لتحقيق الذات الفردية والجماعية من خلال هذا التغيير بصورة مبررة وغير مبررة ، حيث لايجد الأفراد فى هذا المجتمع صعوبة تذكر فى تكوينهم الوجدانى والنفسى والحضارى تعوق أو تحول دون تغيير مواقفهم وأفكارهم وأنماط حياتهم ، واستبدالها بمواقف وأفكار وأنماط حياتية جديدة ، حتى على المستوى العقائدى نفسه ، بقدر ما أن الصعوبة تكمن فى المواءمة بين هذا التغيير وبين متطلبات هذا النزوع القوى لتحقيق الذات الفردية والجماعية ، التى تمثل « جوهرياً » مقياس القبول أو الرفض للمتغيرات المبررة وغير المبررة ، سلبية كانت أم إيجابية ، ويضاف إلى كل ذلك التجاوز غير العادى لحدود الذات الفردية إلى الذات الجماعية والحصول منها على أهم مقومات ومتطلبات هذه الذات الفردية وتحقيق أغراضها ووجودها نفسه .

هذا الفرض المركز بعبارات قصيرة ومختصرة وربما غير مفسرة وموضحة بالقدر الكافى حول طبيعة المضمون الفكرى للتراث الحضارى فى المجتمع اليمنى بعامة سوف تتضح كل أبعاده ومدى قدرته على الصمود والثبات أمام تحليل مجريات الواقع التاريخى والاجتماعى ووقائعه القديمة

= تراثية وحضارية ذات طابع معين ، أما التراث الشعبى فهو لايختلف عن التراث الرسمى إلا من حيث كون كل عناصره ووقائعه مشروطة بظروف الواقع التلقائية المباشرة بفاعلية أكثر من التنظيم الرسمى للدولة والمجتمع ، إذ أن هذا التنظيم الرسمى هو فى جانب أساسى منه وبالضرورة إنعكاساً وتعبيراً مباشراً وغير مباشر عن ذلك الجانب الغير رسمى من التنظيم الاجتماعى الذى نسميه تنظيم شعبى أو تراث شعبى ، وكلا الجانبين مرتبط بالآخر ويؤثر ويتأثر به ، ، إلا أن الجانب الأول « التراث الشعبى » غالباً مايعبر عن حقيقة ماهو موجود ومايوفر الحد الأدنى على الأقل مما تتطلبه ضرورات البقاء والعيش فى جماعة بشرية تحت أى ظرف من الظروف ، بينما يعبر الجانب الآخر « التراث الرسمى » عما ينبغى أن يكون ، بطريقة إرادية واعية ومنظمة ، إلى جانب كونه إنعكاساً وتعبيراً عن الجوانب الحسنة فى التراث الشعبى نفسه ، أو ما يفترض عادة على الأقل أنها حسنة .

والحديثة باختصار ، خصوصاً مايدخل منها ضمن البديهيات المتداولة والمعاشة ، وذلك من خلال اختزال المضمون الكلى للفرض السابق فى ثلاث نقاط رئيسيه ، وجعل كل منها عنوانا ومدخلا للتحليل والبحث لمجمل جوانب هذا الموضوع ، وهى أن التراث اليمنى عامة يتميز بـ : شيوع العلانية وضعف الجانب الاعتقادى ، والميل إلى التحكم فى مظاهر البيئة والطبيعة وتطويعها لخدمه أغراض ومتطلبات اجتماعية عامة ، ثم المرونه والقابلية الملحوظه لامكانية الأخذ والعطاء المشروطة بتحقيق الذات .

التذكير بالبديهيات

ألا يكون من بديهيات الأمور وأيسرها القول فى ضوء كل ما سبق فى الفصل الماضى من هذه الدراسة بأن قدماء اليمنيين قد أقاموا حضارة إنسانية حقيقية لا تقل شأناً عما فعله جيرانهم ، وربما حقيقة رسلهم وطلائع هجراتهم الاجتماعية والسياسية من الأشوريين والفينيقيين أولا فى بلاد الشام وعلى شواطىء دجلة والفرات ، ثم الغساسنة والمناذرة قريبى العهد من عمر التاريخ فى نفس المنطقة ، وأخيراً جحافل الفاتحين حملة الدعوة الإسلامية وأنصارها إلى أكثر من مكان فى العالم الإسلامى ، وكذلك معاصريهم القدماء من الفراعنة واليونانيين وغيرهم[1] وأنهم وهو الأهم قد اهتموا داخل موطنهم الأصلى ببناء عشرات ومئات السدود ، لحجز مياه الأمطار الموسمية ، على مستوى من الدقة والضخامة والانتشار لانجد له قرينة تذكر حتى الآن فى أى حضارة أو مجتمع آخر من المجتمعات القديمة ، وكذلك شبكات الرى التى تنظم الاستفادة من هذه المياه المحجوزة طوال العام وصولا إلى توفير رى دائم منظم ومضمون من مياة الأمطار ، بدلا من الرى الموسمى

---

(١) أنظر حمود العودى : المنظور العلمى للثقافة دراسة خاصة عن المجتمع اليمنى طبعة القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٠٩ — ١١٢ . وكذلك كتاب : أهل اليمن فى صدر الإسلام ، راجع الفصل الثالث والباب الثالث من الكتاب بصفة عامة .

وانظر فى ذلك أيضاً تاريخ اليمن السياسى لمحمد بن يحيى الحداد الطبعة الثالثة ص ١٣٥ — ١٤٠ طبعة القاهره ١٩٧٦ .

العشوائى غير المضمون(١) ناهيك عن إقامة وتنظيم مزارع هائلة فى السفوح والمنحدرات الجبلية ، فيما يشبه عملية تحد صارخ لقهر الطبيعة وانتزاع أسباب الحياة المزدهرة منها بالإكراه ، نظرا لما كانت تتطلبه إقامة مثل هذه المزارع من من جهود مضنية وغير عادية من أجل إقامة الحواجز المرتفعة المبنية من الصخور القرانيتية الضخمة بطريقة هندسية وفنية بالغة الدقة والمتانة ، لتجميع التربة خلفها ، والمنحدرة من أماكن أعلى مكونة المساحات الواسعة من ناحية ، ولحفظ تربة هذه المساحات من الانجراف إلى أسفل من ناحية أخرى ، وكذلك المدرجات الزراعية فى الأماكن الأكثر تضرساً من المرتفعات الخصبة ، فالأرض الزراعية فى اليمن — كما يقول الأستاذ محمد أنعم طالب — لم تعد منحة الطبيعة فمعظم الرقعة الأرضية المنتجة احتاجت إلى مجهود إنسانى مباشر لتكون منتجة ، وبكلمة أخرى مالت الأرض المنتجة إلى أن تكون من خلق الإنسان لا من خلق الطبيعة(٢) . والتى ما تزال حتى اليوم ينبوعا لجمال الطبيعة وسحرها ورمزا لإرادة الإنسان المنتصرة وإصراره العجيب على تأكيد إمكانية فرض الحياة والبقاء تحت مختلف الظروف ، يضاف إلى ذلك اهتمام قدماء اليمنيين البارز بالمرافق العامة الأخرى مثل الأسواق وطرق المواصلات ، التى لا تقل أهمية فى تقنيتها وضخامتها عن السدود ومزارع السفوح الكبيرة ، نظرا لما تحتله الطريق من أهمية بالغة فى ضرورة الربط بين مناطق بيئة جبلية وبركانية شديدة التضرس فى مجملها(٣) . أما نظام الدولة والمجتمع فهو إن لم نستطع تمثله من خلال كل تلك البقايا بما يكفى ، فإن الزمن ما يزال كفيلا بالكشف عنه وعن كل البقايا التاريخية والحضارية التى لم يعرف ويسجل منها إلا النزر اليسير حتى الآن ، ويكفى أن نذكر هنا للدكتور جواد على قوله : بأنه وجد

---

(١) اكتشفت مؤخراً بعثة أثرية ألمانية فى منطقة مأرب مصرفاً مائياً سليماً يصل طوله إلى حوالى مائة وأربعين كيلومتر مبنى بطريقة هندسية دقيقة تحدثت عن ذلك الكثير من الصحف والمجلات خلال شهر ديسمبر ١٩٧٧ ومن بينها جريدة الجمهورية المصرية .

(٢) راجع محمد أنعم غالب : نظام الحكم والتخلف الاقتصادى والاجتماعى فى اليمن ص ٩٦ طبعة القاهرة ١٩٦٢م .

(٣) تاريخ اليمن السياسى للحداد ص ٥٠ ، مرجع سابق » .

للملك « يدع أب ذبيان بن شهر » وثيقة على جانب كبير من الأهمية لأنها قانون من القوانين الجزائية المستعملة فى مملكة (قتبان) بل فى الواقع من الوثائق القانونية العالمية ، ترينا أصول التشريع وكيفية إصدار القوانين عند العرب الجنوبيين قبل الميلاد ، فيها روح التشريع الحديث وفلسفة التقنين ، وترينا أن الملك هو المرجع الأعلى للدولة وهو وحده الذى يملك حق إصدار القوانين ونشرها ، والأمر بتنفيذها ، وترينا أيضا أن مجالس الشعب « وهى المجالس المسماة بالمزاود » تتكون من ممثلى المدن ومن رؤساء القبائل والشعاب وهى تقترح القوانين وتضع اللوائح(١) . ويقول « نيكلوس » والحقيقة التى يجب أن نسلم بها مقدما هى أن تلك البلاد (اليمن القديمة) قد عرفت نظاماً يتكون من مجالس تمثل الشعب تمثيلا نيابيا(٢) .

دلالة الفرض وما وراء البديهيات :

كل هذه الأشياء ربما أنها قد أصبحت من الأمور البديهية ومما لايختلف بشأنه معظم الباحثين المعاصرين ، وسبق لنا تحليله بأفاضة فى كل فصول القسم الأول من هذه الدراسة ، ويمكن ملاحظته ولمسه بالحواس المجردة تماماً كما يستطيع المرء أن يفعل وهو يقف بجوار الهرم الأكبر أو تمثال أبو الهول فى تبة الجيزة بمصر ، لكن الشيء المهم الذى نحن بصدده الآن هو ما الذى يمكن استنتاجه والتعرف عليه من أنماط التفكير الاجتماعى والسياسى والعملى الذى كان يتمتع به هذا المجتمع فى مثل تلك الحقب المتقدمة من التاريخ المبكر ، من خلال أنماط هذه الممارسات والأفعال المميزة للتراث اليمنى والحضارة اليمنية إلى حد كبير فى التعامل مع مظاهر الطبيعة والبيئة المحيطة بحثاً عن أساسيات البقاء ومقومات الاستمرار والتقدم .

لماذا اختار الناس بناء السدود بدلا من المعابد والمقابر ، كما فعل قدماء المصريين على طول وادى النيل وعرضه مثلا ، ولماذا اختار المجتمع اليمنى القديم بأسره هذا الموقف العملى المتشدد من مظاهر الطبيعة وظروف البيئة

---

(١) د. جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٩٣ ج ٢ نقلا عن المرجع السابق ص ٥٠

(٢) د. نيكلوس : التاريخ العربى القديم ص١٣٢ ومابعدهانقلا عن المرجع السابق ص٥٥ .

المحيطة الصعبة ، رغبة منه فيما يشبه عقدة التحكم والتفوق عليها بدلا من الاحكام إليها والبحث عن أسباب الخير والشر من خلال نظامها وتصرفاتها العشوائية بالنسبة للإنسان ، ويستمدون منها بطريقة ساذجة أسباب الحياة وتعليل وجودها ، كما فعلت معظم المجتمعات الحضارية القديمة المعتمدة على الزراعة فى وادى النيل حيث سخر كل شىء من أجل حياة ما بعد الموت ، وحيث كان الاعتقاد باستحالة فيضان النهر ما لم ترم فيه عرائس البشر الجميلة وفق طقوس دينية رسمية معينة ، أو فى بلاد اليونان حيث الانفصام المسرف بين الفكر المغرق فى الفلسفة والتأمل وأصناف الخيالات والإلهيات الدينية والميتافيزيقية المغرقة فى اللامعقول ، وبين الواقع الذى قسم فيه البشر تقسيماً طبقياً مغلقاً ، واحتقر فيه الفعل والعمل اليدوى إلى حد كبير ، ناهيك عن الحرث والزرع والبناء ، حيث وقف كل ذلك على طبقه العبيد والبرابرة ، الذين لم يكن القهر والاحتقار يوجه إليهم كطبقة اجتماعية فحسب ، بقدر ما كان موجهاً بنفس القدر إلى احتقار الأفعال والمهن التى يمارسونها وإلى العمل بشكل عام ، يجسد كل ذلك كبير فلاسفتهم أفلاطون بقوله : أشكر الله لأنه خلقنى يونانياً حراً لا عبداً ورجلا لا امرأة ، وأشكره كذلك لأننى ولدت فى عهد سقراط . (١) أو كما حدث ويحدث حتى اليوم فى بعض المجتمعات العريقة فى التاريخ الحضارى كالهند ، حيث كان وما يزال احتقار العمل ليس مبدأ اجتماعياً فحسب ، بل ومعتقد دينى أيضاً ، حيث يعتبر التسول والموت جوعاً والاستسلام لأشد المصائر تعاسة هو مقياس الفضيلة والتقوى والوسيلة الوحيدة التى تتيح للمرء أن يولد من جديد ، يوما ما فى وضع اجتماعى أفضل(٢) .

هذا الاستطراد السريع ليس مقصوداً لذاته ، بقدر ما هو قرينة دالة ولاجدال فيها حول حقيقة أنه بالرغم من أن كل الحضارات القديمة

---

(١) د. جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية ، دار الكتاب اللبنانى بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٠ ص ٣٩ .

(٢) أنظر رينيه ديمون ومارسيل مزواييه : التجارب الاشتراكية أمام مشاكل التنمية نقله إلى العربية رشيد حسن وحسن قبيسى — دار الحقيقة بيروت ص ٢٢٩ ، ٢٤٢ .

قد توصلت إلى الكثير من حقائق العلوم الطبيعية والهندسية والكيمائية التى اعتدت عليها فى بناء نفسها ومخلفاتها المادية الماثلة حتى اليوم ، إلا أن المضمون الإجتماعى والإنسانى الذى استخدمت فى إطاره هذه الحقائق ورتبت من أجله الأوضاع الإجتماعية والسياسية والعقائدية أيضاً ، هو الذى يصرخ بوضوح فى تباين وتمايز المضمون العقلى والذهنى من طراز حضارى لآخر ، هذا التباين الذى تجسده الوقائع والمنجزات المادية التى تعكسه وتعبر عنه أصدق تعبير واضح ، لا يحتاج المرء معها إلى جهد كبير أو عنى يذكر لكى يميز بين المضمون والمحتوى الفكرى والعقلى لبانى الهرم الأكبر فى تبة الجيزة كمقبرة لموت فرد أو عائلة ، ورمزاً لخلودها الموهوم ، وما ارتبط بكل ذلك من تسخير البشر وقدراتهم الجسدية والعقلية والعلمية فيما يشبه عملية الإنسحاب المطلق من هذه الحياة الدنيا التى لم يبق لها نصيب يذكر من الإهتمام ،حيث الدور والقصور — كما يقول سيرج سونيرون — وسائر ما خصص لأغراض الحياة الدنيا من عمائر قد كانت كلها مؤقته ويكفى لبنائها اللبن ولذا نجد أنه لم يبق من عمائر الدنيا شىء أو أن ما بقى منها شىء يسير . (١) وذلك فى مقابل عقلية بانى السد العالى ، على نفس الوادى بعد ثلاثة أو أربعة آلاف سنة ، من أجل الحياة لكل الناس ، وفى عملية تحد لقهر الطبيعة والتحكم فيها لصالحهم حقيقة لا وهماً أو خرافة .

والشىء الأهم بالنسبة لموضوعنا هذا ومالا نحس بأدنى شك فى تأكيده هو أن قدماء المنيين قد عاشوا هذا الموقف والمضمون العقلى الذى حدا بنا فى النصف الثانى من القرن العشرين لبناء السد العالى ، عاشوه بكل أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبل ثلاثة أو أربعة آلاف سنة ، وشكل هذا المضمون العقلانى الناضج حجر الزاوية والطابع المميز الأول لحضارة هذه المنطقة ، هذا الطابع الحضارى المميز الذى كرم العقل وربط بينه وبين متطلبات الإنسان الواقعية وأسباب تطوره وتقدمه الحقيق ربطاً متيناً ،

---

(١) سيرج سونيرون : كهان مصر القديمة ترجمة زينب الكردى مراجعة الدكتور أحمد بدوى الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ص ٤ .

وحماه من الوقوع كلية تحت طائلة المعتقدات الجامدة والوهم والخرافة وكل المفاهيم والمتاهات الميتافيزيقية التى تركت بصماتها الواضحة فى كل الحضارات القديمة إلى هذا الحد أو ذاك ، وكانت حضارة هذه المنطقة « اليمن » هى حقيقة أقلها جميعاً تأثراً واحتكاماً لهذا الجانب ؛ وصحيح بأنها لا تخلو منه بكل تأكيد لكنه أقل العوامل وأكثرها ضعفا فى مسارها ، وهو الأمر الذى سنزيده توضيحا أكثر وتحليلا أعمق فى كل الصفحات والفقرات التالية .

التناقض الجدلى بين العقل والميتافيزيقا فى التراث اليمنى

إن شيوع المضمون العقلانى فى تفكير وممارسة المجتمع اليمنى القديم فى تعامله مع الطبيعة والبيئة المحيطة الذى سبق الحديث عنه والتدليل عليه ، يقابله بديهياً إنكماش وتقهقر واضح فى الجانب الإعتقادى والميتافيزيقى ، وعدم الغلو فيه والاحتكام إليه بأى حال ، وكل الوقائع والدلائل المؤكدة للموقف العقلانى السابق هى من باب أولى برهان جدلى مباشر على ضعف هذا الجانب الإعتقادى وانحداره إلى موقع هامشى تماماً فى حياة المجتمع وعلاقاته . فقد سَخِر قدماء اليمنيين بالدهر وحتميات الغيب ، حيث تكشف دوريات ومراثى أولائك الملوك الحميريين — كما يقول شوقى عبد الحكيم — عن موقف غريب معاد فى جوهره للدهر كمرادف للموت ، بل كثيراً ما يسخط من قضية الباطشين التى تذهب بالإنسان وتغيبه . . . فبأى حق يكون دوام الدهر متمثلا فى تعاقب الليل والنهار دون الإنسان ، وهو فى النهاية يستصغر من شأن الدهر وعشوائيته ويصفة بأنه غير جدير بالمعاتبة أى أن الدهر دون مستوى العتب . .(١)

ونستطيع أن نتأكد من موضوعية هذا الرأى الذى أورده الباحث المذكور والتصاقه بجوهر الحقيقة الواقعية إذا ما تدبرنا اليوم ومن خلال مجمل البقايا والمأثورات الحضارية المادية ، ولاحظنا الحيز الضيق والهامشى

---

(١) شوقى عبد الحكيم : أساطير وفلكلور العالم العربى الجزء الأول ص ١٦٢ مؤسسة روز اليوسف نوفمبر ١٩٧٤ م .

الذى كان يشغله الجانب الاعتقادى فى الحضارة اليمنية من مقابر وأصنام ومعابد وآلهات ، والذى لم يستدل عليه حتى الآن بأى شىء يستحق الذكر ، إذا ما قورن بالجانب العقلانى والعلمانى الشديد الوضوح والشمول الذى سبق الحديث عنه من عشرات ومئات السدود وقنوات الرى والطرق والمزارع والمدرجات والحصون والقلاع والقصور والمدن المزدهرة والصهاريج الحجرية الضخمة التى تغطى مختلف المناطق بتوزيع متكافىء تقريباً ، ومرافق الدولة وأسس نظمها المختلفة .

والنقوش اليمنية — كما يقول الدكتور يوسف محمد عبد الله — تروى معالم حضارة أهل اليمن القدماء : تجارة نشطة بين الشرق والغرب جلبت إزدهاراً فائقاً ، وزراعة مغدقة إتكأت على وسائل من الرى راقية بمقاييس العصر آنذاك ، ومعمار فذ قائم على استخدام الحجر وفنون الزخرف لايوازيه فى تاريخ الشرق القديم إلا معمار وادى النيل ، وتقدم فى استعمال المعدن ونحت الحجر يشيد بكفاءة الصناع ومهارة فنهم (١) ، هذا فى الوقت الذى يضيف الدكتور يوسف فى موضع آخر بالنسبة للجانب الدينى قوله : « ليس سهلا على المرء أن يتحدث عن العبادات فى اليمن القديم إذ تكاد تنعدم تلك النقوش التى يمكن أن تلقى الضوء على معالم الآلهة والأساطير فى ذلك الزمن ، ولا تتوفر نصوص عبادة كتلك التى عثر عليها ضمن آثار بلاد مابين النهرين (٢).

وقد دلت نقوش الخط العربى المسند بأن قدماء اليمنيين كانوا حينما ينتصرون فى الحرب أو يعم الخصب ، يقومون بعمل الاحتفالات السياسية والاجتماعية بذلك ، وتدوين هذه الوقائع فى لوحات خطية صخرية جميلة مذيلة فى آخرها أو أولها ببعض العبادات الدالة على بعض الشعائر الدينية الغامضة ، شكراً للإله على ذلك ، بطريقة هى أبعد ماتكون عن الممارسات الطقوسية وأقرب إلى الاحتفالات العامة(٣) وحدوث مثل هذه

---

(١) د . يوسف محمد عبدالله : مقال فى مجلة اليمن الجديد ، عدد مارس ١٩٨٠ ، ص٢٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص٣١ .

(٣) راجع بصفة عامة كتاب مطهر الإريانى : فى تاريخ اليمن ، شرح وتعليق على نقوش لم تنشر ، صدر عن مركز الدراسات اليمنية صنعاء ، ١٩٧٣ .

الاحتفالات الاجتماعية المختلطة بمشاعر التدين بعد الانتصار فى الحرب أو وقوع موسم الخصب ومجرد التعبير عن التفاول والتشاؤم فى المستقبل هو أمر ذى مدلول إجتماعى عقلانى أكثر منه دينى ، لأن الطقوس الدينية الحقيقية ، وبالذات فى المجتمعات القديمة والحديثة أيضا هى التى تبدأ بها الأشياء وتطلب من خلالها ولاتنتهى بها ، لأن مختلف الدراسات والبحوث الأنثربولوجية والاجتماعية والانسانيه العامة قد أكدت بأن مختلف أشكال العقائد وأنماط التدين والطقوس فى المجتمعات القديمة هى فى أساسها وطابعها العام مجرد تعبير أول عن رغبات الإنسان واحتياجاته وطموحاته التى عجز عن تحقيقها فى نطاق الواقع العملى ومن خلال المنطق العقلى المباشر ، وتقريب أول لمعرفة وتفسير مظاهر الطبيعة وظواهر الكون المحيطة وأسلوب فعلها وذلك باللجوء إلى الطرق الغيبية والخرافية ، حينما كانت تعجز حدود معرفته العقلية والعملية عن تفسير كل شىء فى نطاقها بسهولة ، وهى بصفة عامة وسيط مشوهة وسالب بين الانسان والطبيعة باستمرار ، وهو أمر لم يجد الانسان منه بد أو معزل فى مرحلة تاريخية معينة ، ويعبر عن رغبته فى الحصول على المزيد من معرفة أسرار الطبيعة من حوله وتنمية معارفه الحقيقية عنها ، فكل مالايدخل فى نطاق هذه المعارف العلمية والعقلية وظواهر الكون والطبيعة والانسان ، هو بالضرورة داخل فى نطاق هذه الوسائط السالبة وتفسيراتها الخاطئة حتى اليوم ، بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، وهو من وجهة النظر العلمية المجهول الذى لم يدرك العلم حقيقته بعد والقابل للمعرفة الانسانية فى المستقبل ، وهو الأمر الذى مايزال الانسان يناضل من أجله ويحرز انتصاراته ضده ، والمتمثل فى مجاهل الطبيعة والكون كل يوم .

وهو من وجة النظر الميتافيزيقية والمثالية المجهول الذى لايعجز الانسان عن معرفته فحسب ، بل والقوة التى يجب أن يستسلم لمشيئتها وعشوائيتها المطلقة ، والتى تملى علينا من المفاهيم والمعارف الميتافيزيقية والخرافية المقدسة عن أنفسنا وعن الكون من حولنا كما تشاء هى بعشوائيتها المثالية ، لا كما نتدبرها نحن بعقولنا وتجاربنا المادية ، وبمقدار مايستطيع الانسان أن يحد ويضيق من مسافة وحجم هذا الوسيط السالب بينه وبين الظواهر الكونية

والطبيعية ويضاعف من استخدام العقل واكتشافاته ومعارفه العلمية والعقلية، التى تشكل الوسيط الموجب بينه وبين هذه الظواهر ، بمقدار مايكون قد استطاع أن يخطو نحو تقدمه الحقيقى ، والعكس صحيح(١) . وعليه فإننالانحس بأدنى شك بأن قدماء اليمنيين من خلال الطابع العام لحضارتهم قد ضيقوا كثيراً من مسافة وحجم ذلك الوسيط المشوهة ، واعتمدوا أكثر على وسائط عقيلة وعلمانية بينهم وبين الطبيعة ، وفى كل شئون حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والعكس صحيح ، وذلك إذا ما قورنوا على الأقل بمن عاصرهم أو سبقهم قليلا من قدماء المصريين واليونانيين وغيرهم .

نقوش الخط المسند (تحليل مضمون)

كما أنه من خلال تحليل العديد من النقوش واللوحات المكتوبة بالمسند، التى نشر الكثير منها فى أكثر من عمل لباحثين أوربيين ومحققين يمنيين ،وبالذات النصوص ذات العلاقة بالجانب الدينى ، ومن ذلك مجموع أربعة وثلاثين نصا التى قام بتحقيقها وشرحها الأخ الباحث والمؤرخ مطهر على الإريانى ، ونشرها فى مصنف قيم عام ١٩٧٣ وجد أنها فى مجملها تتركز حول ثلاث قضايا أساسية ، تكرر نفسها فى كل النصوص تقريبا ، مع اختلاف الحوادث والأشخاص الذين سجلت باسمهم ، وهذه القضايا الأساسية التى نورد مضمونها مرتبة حسب الأهمية الواردة فى ترتيب مضمون كل نص على حده تقريباً هى :

---

(١) إن الفرق بين كلا الموقفين إزاء مالم يدخل بعد فى نطاق المعرفة العلمية للانسان من حقائق العلم وقوانينه حول مجمل ظواهر الكون والقوانين الطبيعية بين من يعتبرها أشياء مجهولة قابلة لامكانية المعرفة من خلال نضال الانسان ودأبه المستمر من أجل معرفتها والتحكم فيها لصالحه ، وبين من يعتبرها عالما قائماً بذاته وشديد الهول والجبروت ، والانسان هو مجرد ظاهرة ملحقة به ، ومرهونة بمشيئته ولا يجوز استخدام العقل فى إمكانية معرفة هذا العالم معرفة حقيقية ، عوضاً عن كون ذلك من الأمور غير القابلة للمعرفة أصلا ، التى تتجاوز حدود معرفتها قدرة الإنسان وتفكيره ، هذا الفرق هو فرق بالغ الدلالة والأهمية بين المفاهيم والمواقف الرجعية المتخلفة وبين غيرها من المواقف والمفاهيم التقدمية العلمية والعلمانية المتقدمة (أنظر فى ذلك تفاصيل أكثر فى مجلة الغد اليمنية عدد أغسطس ١٩٧٧ دراسة بعنوان : الاتجاه الواقعى فى نظرية المعرفة . حمود العودى) .

(أ) إن الملوك وقادة الجيوش وبعض الاقيال ، كانوا حينما يحرزون إنتصاراً فى الحروب ضد بعضهم أو ضد الغزاة الأجانب كالأحباش مثلا ، وخارج حدود بلادهم تماماً كانوا يقدمون للإله هدايا أو نذوراً فى شكل صنع تماثيل رمزية لها من البرنز الذهبى والفضى ، ونادر جداً من الذهب الخالص(١) شكراً لها على مساعدتهم فى تحقيق ماتوصلوا إليه وهذا هو الغرض الأول .

(ب) أما الغرض الثانى فقد كان يهتم بنفس الطريقة حينما يحصدون محصولا وافراً من المحاصيل فى الحقول من الحبوب والأعناب والفواكه وغيرها ، طوال الموسم الزراعى خلال العام ، وفى حالة جريان السيول إلى السدود التى تختزنها للرى وهذا هو الغرض الثانى .

(ج) أما الغرض الثالث والأخير ، وهو أقل الأغراض وضوحاً وبروزاً فى النصوص ، وهو أشبه بخاتمة النص التقليدية التى لاترتبط جوهريا بهدفه وموضوعه فى الزمان والمكان ، فهو عبارة عن طلب الآلهة أن تستمر فى المساعدة على النصر وهزيمة الأعداء ودفع شرهم وحسدهم واستمرار أسباب الخصب والرخاء وأبعاد الطوالع المشئومة وجلب الطوالع الميمونة والحصول على الرضاء والحظوة عند سيد القوم أو ملكها ، وهذه نقطة أكبر بروزاً ، إلى جانب تجنب المرض والحصول على الأولاد الذكور الصالحين .

ولم يعثر على نصوص دينية ذات بال أو تتجاوز هذا الحد من التعبير الإحتفالى الذى يتضح منه الدور الثانوى والمساعد لوظيفة الآلهة والعقيدة نفسها التى لاتخرج عن حدود المنطق العقلى للواقع ومتطلباته السياسية والاجتماعية والإقتصادية ، وكأن الإعتقاد لم يكن يتعدى فى حياة قدماء اليمنيين أكثر من كونه مفهوما أدبياومعنويا للتفاؤل أو التشاؤم فى حياة المجتمع ، وليس له أدنى صلاحية تذكر فى التسلط والتصرف فى حياة البشر وتقرير مصائرهم ، حيث لم تعرف حتى الآن أى إشارة واضحة لفكرة الأمروالنهى

(١) إن عدم صنع مثل هذه التماثيل من الذهب رغم توفره وكثروته عندقدماء اليمنيين واستعماله بكثرة فى صنع أسلحتهم وأدواتهم وتزيين بناء مساكنهم أيضا ، ويعطى دليلا قائماً بذاته على تواضع الجوانب الدينية فى حياتهم .

والثواب والعقاب والحلال والحرام وكل ما يدل على معنى « الطوطمية »(١)، والموت والبعث والطقوس الملزمة ونحوه ، ما عدا ماتشير إليه بعض النصوص من الشعور بضرورة القيام بعمل ما من خلال الرؤيا العادية وربط ذلك برغبة الآلهة أحياناً بطريقة ما ، اضافة إلى أن الوقائع المادية المتاحة بين أيدينا حتى اليوم من المعالم والآثار المنتشرة فى كل منطقة تقريباً ، لاتسعفنا بشيء يذكر ويستدل على كونه معابد أو مقابر حقيقية ذات شأن(٢) ، بجانب البقايا والآثار المتعددة والمنشرة فى مناطق كثيرة من المدن والقصور والسدود والطرق والصهاريج وتماثيل الملوك وغيرها .

ولقد ذكر المؤرخ اليمنى المعاصر محمد بن يحيى الحداد فى كتابه القيم تاريخ اليمن السياسى ما نصه : إن الكتابة المعينة بل وغيرها من الكتابات فى العربية الجنوبية القديمة (اليمن) فى أن غالبيتها قد كتب فى أغراض شخصية كالحديث عن إصلاح أرض أو شرائها ، أو بناء عمارة أو تقديم نذر أو ما شابه ذلك ، وفى خلوها من صيغة المتكلم أو المخاطب ، واقتصارها على صيغة الغائب ، وتشاركها أيضا فى خلوها من نصوص أدبية من شعر أو نثر ، ومن نصوص دينية من أدعية أو صلوات ، وهو أمر — كما يقول الحداد —

---

(١) « الطوطمية » أو الطوطم هو مصطلح أوربى حديث نسبياً شاع خلال القرن التاسع عشر لدى علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الأوربية ، وهو يشير إلى مجموعة المفاهيم والمقاييس المنظمة للسلوك الدينى من طقوس وعبادات وتصرفات مختلفة وما يرافقها من معانى التقديس والتحليل والتحريم ... إلخ لدى المجتمعات والجماعات التقليدية القديمة وشبه البدائية .

(٢) بالرغم من أن الحداد وغيره من المؤرخين والمجتهدين اليمنيين يطلقون على بعض الأماكن التى توجد فيها أعمدة ضخمة إسم معبد ، يشاركهم بعض الأجانب ، إلا أن هذه التسميات ربما يغلب عليها الافتراض ونزعة عرفية حديثة فى الكتابة أكثر من كونها معابد حقيقية مستدل عليها من النصوص والوثائق وأنواع العبادات التى كانت تؤدى فيها ، بما فى ذلك ما يعرف بمحرم بلقيس فى مأرب وهو أشهر مثل هذه الأماكن تقريباً ، إذ أنه لم يتفق حتى على حقيقة شخصية هذه الملكة من حيث كونها حقيقة أم أسطورة حتى الآن، إذ لم يعرف إسمها بعد فى النقوش بما يوازى شهرتها ، وغالباً ماتكون هذه الأماكن هى بقايا قصور ومبانى ملكية وأماكن عامة .

يبدو غريبا !!.[١] غير أننا نقول للأخ الحداد بأن عليه أن يطمئن إلى سلامة تحليله للحقائق السابقة ولا داعى للغرابة ، لأن حقيقة عدم استسلام عقول ووجدان قدماء اليمنيين للوثنيات والغيبات المطلقة ، وربط شئون حياتهم ومصيرها بها هو الذى مكنهم من بناء نموذج حضارى إنسانى وعلمانى واضح لا نجد له قرينة مماثلة بين مختلف الحضارات القديمة حتى الأن ، وتلك حقيقة منطقية وجدلية لامكان فيها للغرابة ، ولوحدث عكس ذلك لكان العكس بالعكس صحيح . ويذكر الدكتور « دتلف نلسون » بأن ديانة اليمنيين تتميز بسذاجتها بالنسبة للشماليين حيث يقول : وبالرغم من المبانى العظيمة والسلطان السياسى والثقافة العالية التى تجدها عند شعوب (بلاد العربية الجنوبية) إلا أن ديانتهم كانت ساذجة فى كثير من عناصرها ، فالدين العربى دين بدوى تطور من الديانات السامية الشمالية فى الوقت الذى كان أصحابها يحترفون الزراعة ، وهذه السذاجة الدينية لانلمسها فى الطقوس ودور العبادات وعدم وجود صور وأصنام للآلهة فقط ، بل وفى نظرة هـــذه الديانات للآلهة أيضا !!(٢) .

وفى مقال علمى قيم أكثر حداثه للأستاذ الدكتور يوسف محمد عبد الله ، وهو باحث يمنى معاصر وجاد ، بدأ نشره فى حلقات بمجلة اليمن الجديد إبتداء من مارس ١٩٨٠ م بعنوان : عم تتحدث النقوش اليمنية القديمة ؟ يقدم لنا بداية طيبة فى بحث قضية نحن أحوج وأفقر ما نـكون إليه ، والذى لا يقوى على التصدى لمعالجته معالجة علمية ناضجه أى باحث يمنى فى الوقت الحاضر بمثل ما يمكن أن يتصدى له ويعالجه الأخ الزميل الدكتور يوسف بحكم تخصصه وإخلاصه لبحثه[٣] .

---

(١) الحداد تاريخ اليمن السياسى ص ٤٦ مرجع سابق .

(٢) دتلف نلسون : التاريخ العربى القديم ص ٣٣١ نقلا عن المرجع السابق ص ١١٩ .

(٣) أنا لا أخفى مدى سعادتى حينما تصفحت الحلقة الأولى من البحث على صفحات عدد مارس ١٩٨٠ من المجلة ومادة هذا الكتاب ماثلة للطبع ، فأفدت من ذلك أيما فائدة فى أكثر من موضع فى هذه الدراسة رغم ضيق صفحات الحلقة الأولى والتى لاتتجاوز أحد عشر صفحة وتمنيت لو أن بحث الأخ يوسف قد نشر كاملا .

حيث يذكر الدكتور يوسف بعد المدخل العام عن النقوش أن أسلوبها تقريرى رسمى يتحدث بضمير الغائب وبلغة إيجاز شديد وبخط جميل دقيق ومعنى محدود الغرض تحوطه هالة عالم روحانى عجيب قد يوحى ذلك كله للقارىء بأنه أمام لغة فريدة تتسم بالمهابة والجلال وتترك فى نفسه انطباعا بأنه أمام أقدم لغات العرب . وأن المحتوى العام يدور حول مجالين : الحياة العامة والحياة الخاصة. ويصنف موضوعاته إلى خمسة أصناف هى: ١ــنقوش العبادات. ٢ ــ نقوش المعاملات . ٣ ــ نقوش المنشآت العامة والخاصة . ٤ ــ نقوش الحروب . ٥ ــ نقوش القبور .

وبالرغم من أن الأخ يوسف قد وضع نقوش العبادات فى المقدمة وأشار إلى وجود نظام دينى بالغ التعقيد فى مقابل الحياة الدينية البسيطة فى شمال الجزيرة ، إلا أن الاخ يوسف يورد هذا من قبيل الافتراض السابق لأوانه على الأكثر ليس إلا ، والذى لاتدعمه أية حقائق واقعيه بعد ، لأنه فى الوقت الذى يشير إلى وجود ما لايقل عن عشرة آلاف نقش يمنى قديم مدونه ومحققة حتى الآن يفيد هو شخصيا ــ وهو مصدر ثقة علمية ــ بأنه ليس لديه نصوص ميثولوجية تروى بوضوح تصورات اليمنيين القدماء الدينية وتلقى الضوء على طبيعة آلهتهم وطقوس عباداتهم(١) ٥

ويضيف قوله فى نفس المقال : ليس سهلا على المرء أن يتحدث عن العبادات فى اليمن القديم إذ تكاد تنعدم تلك النقوش التى يمكن أن تلقى الضوء على عالم الآلهة والأساطير فى ذلك الزمن ولاتتوفر نصوص عبادة كتلك التى عثر عليها ضمن آثار بلاد ما بين النهرين أو فى (أوجاريت) أما وفرة أسماء الآلهة ومحاولة الإستناد إلى اشتقاقاتها فقد تزيد من الغموض وربما لا تسعف على التبيان(٢) .

أما إفراد الدكتور يوسف بندا خاصا للنقوش التى تتحدث عن « القبور » فقد كان فى ذلك أقل توفيقا مما سبقت الإشارة إليه عن نقوش العبادات ،

---

(١) د . يوسف محمد عبد الله ، مقال فى مجلة اليمن الجديد عدد مارس ١٩٨٠ ص ٢٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٣١ .

لأنه إذا كانت مسألة عدم وجود عبادات ونصوص وأدعية دينية معقدة وقائمه بذاتها قد أصبحت شبه بديهة فى التاريخ اليمنى ، وأن وجود مبانى ومعابد وآلهه مادية كالأصناف وغيرها ما تزال مسألة خلافية ، فإن القول بوجود مقابر ونقوش تتحدث عنها وعن موتاها هو أمر إن لم يكن من باب المتعذر فهو اجتهاد من الأخ يوسف وسابق لأوانه . كما أنه على خلاف ما يذكرة الأخ يوسف من وجود نظام دينى بالغ التعقيد فى جنوب الجزيرة (اليمن) فى مقابل حياة دينية بسيطة فى شمالها ،فربما يكون العكس هو الصحيح.

ذلك أن شمال الجزيرة قد ظلت تشكل الامتداد المباشر لمختلف الديانات التى تنبع من الشام وبلاد الرافدين بدأ بالوثنيات مرورا باليهودية وانتهاء بالنصرانية كما هو معروف وتداخل هذه الأشكال الثلاثة دائما بوضوح فى حياة عرب الشمال حتى ظهور الاسلام .

هذا فى الوقت الذى لم يتأثر عرب الجنوب (أهل اليمن) بهذه التيارات إلا فى مراحل ضعفهم الحضارى فى المراحل المتأخرة ، ومن زاوية سياسية وليس عقائدية على نحو ما سنرى بتفصيل أكثر بعد قليل .

وعلى عكس ما يشير إليه الدكتور يوسف فإن ديانة عرب أهل اليمن فى فترات ازدهار حضارتهم قد تميزت بالتبسيط الزائد إلى حد السذاجه كما يؤكد ذلك الدكتور : « ديتلف نلسون » وهو حجة بقوله : وبالرغم من المبانى العظيمة والسلطان السياسى والثقافة العالية التى نجدها عند شعوب (بلاد العربية الجنوبية) إلا أن ديانتهم كانت ساذجة فى كثير من عناصرها ، فالدين العربى الجنوبى دين بدوى تطور من الديانات السامية الشمالية فى الوقت الذى كان أصحابها يحترفون الزراعة ،وهذه السذاجة الدينية لا نلمسها فى الطقوس ودور العبادات وعدم وجود صور وأصنام للإلة فقط ، بل وفى نظرة هذه الديانات للآلهة أيضا[1] .

اليمنيون لم يتدينوا باليهودية أو النصرانية

والأمر لا يتعلق بما غبر من الزمن ، فالسمات الحضارية الجوهرية لابد

---

(١) د . ديتلف نلسون : التاريخ العربى القديم ص ٣٣١ .

وأن تترك معالمها ومدلولاتها وامتداداتها فى حياة الأمم والمجتمعات ، مهما تراكم ثقل التاريخ وتحولاته عليها ، فإذا كنا ما نزال نلحظ بوضوح نزعة الاعتقاد الراسخة والعميقة فى مزاج المجتمع المصرى وعاداته وأنماط سلوكه ، والتى قد لا ترتبط بتعاليم الديانة الرسمية السائدة كالاسلام أو المسيحية ، بقدر ما تعكس بعد ووجدان حضارى مغرق فى القدم والأصالة ، بما فى ذلك بعض الطقوس التى ما تزال تمارس بطريقة ما ، ولاصلة لها البتة بالديانة الرسمية ، كعيد شم النسيم والإقامة فى المقابر أيام الأعياد والمناسبات . . . الخ ، وهى امتداد لأصول طقوسية فرعونية ، فإن اليمنيين قد عبروا طوال مراحل التاريخ وحتى اليوم عن موقفهم المغاير تماما فى هذا الشأن ، حيث كان المجتمع اليمنى قبل ظهور الاسلام قد استقبل اليهودية والمسيحية وتعامل معهما كموجات وأيدولوجيات سياسية وليس كمعتقدات دينية أبدا إلى الحد الذى يجعل من هذه العقيدة أو تلك نظاما سياسياً واجتماعيا شموليا فى المجتمع ، لأن كل القرائن تؤكد بأن اليمنيين لم يتدينوا بأى من هاتين الديانتين الكبيرتين ، لأن المدة الزمنية التى عرف عن اليمن — خطأ — بأنها قد تهودت أو تنصرت فيها لاتتجاوز المائه عام ، بدأ بذو نواس الملك الحميرى اليهودى اليمنى حوالى العام ٥١٥ ميلادية ، « مرورا بأبرهة » الغازى المسيحى القادم من الحبشة ما بين عام ٥٣٥ وحتى عام ٥٨٩ ، وحتى ذو يزن فى الفترة ما بين عام ٦٠٠ و ٦٢٠ ميلادية تقريبا ، والذى لم يكن لا يهوديا ولا نصرانيا .

وبعد مقتل سيف بن ذى يزن انفرد الفرس بالسلطة فى حين كان الاسلام قد بدأت تباشيره تدق فى الشمال والجنوب حينما أسلم باذان الحاكم الفارسى فى صنعاء فى العام ٦٢٨ .

فإذا ما دققنا فى الفترة الزمنية من ذو نواس حتى ظهور حركة ذو يزن وانتصارها على الاحباش والتى لاتتجاوز كما هو واضح المائة عام ، وهى الفتره التى يعزو إليها المؤرخون اعتناق اليمنيين لليهودية ثم المسيحية كديانة ، إذا ما دققنا فى ذلك لأدركنا بوضوح أن فترة زمنية كهذه هى تكفى تماما لانتشار موجات فكرية وأيدولوجيات سياسية من أى نوع وانحسارها فى نفس الوقت ، إلا أنها لا تكفى أبدا ولا تسمح بانتشار عقيدة دينية معقدة

كاليهودية أو المسيحية وانحسارها أيضا فى نفس الوقت ، فما بالنا أن نصدق الافتراض الخاطىء بأن اليمنيين قد تدينوا بهاتين الديانتين الكبيرتين بالتتابع وتخلوا عنهما فى أقل من قرن واحد من الزمن ، لاننا لا ندرى كيف نتصور أن جيلا واحدا بأكمله فى مجتمع واحد قد تدين باليهودية ثم بالنصرانية وتخلا عنهما فى نفس الوقت .

فحتى ظهور الدعوة الإسلامية ورغم ما كان قد أصاب كل مقومات الحضارة والمدنية اليمنية من تصدع وضعف ، فإن كتب السير لم تتعرض لذكر أية أصنام أو معابد أو هياكل وثنية أو مسيحية عند ظهور الدعوة الإسلامية وانتشارها فى اليمن ، وإذا كان قد ثبت وجود انتشار نسبى لمبانى الكنائس المسيحيه وبعض المعابد اليهودية أثناء وجود سيطرة الأحباش ، فقد كان ذلك هو التعبير الطبيعى عن انتشار السلطة الاجنبية ومواطنيها وجنودها ، وكمجرد محاولة فاشلة لحمل اليمنيين على التدين بالمسيحية ، أو حملهم عبثا على التدين بديانة اعدائهم وغزاة بلادهم .

وهى صورة تكاد تكون طبق الأصل لما حدث فى القرن العشرين فى الجزائر حينما كشف الفرنسيون من إقامة الكنائس والأديرة فى كل مكان كجزء من إثبات وجودهم الاستعمارى وحمل الجزائريين على اعتناق ديانه مستعمريهم بلا جدوى ، حيث رحل المستعمرون الغزاة وبقيت المبانى شاهدا على الغزو لا على تدين المجتمع بالمسيحية ، حيث لا يوجد فى الجزائر مسيحى واحد تقريبا فى الوقت الحاضر . كما أن النبى (ﷺ) كما يذكر الباحث المحقق القاضى محمد الأكوع — حينما بعث عماله إليه (إلى اليمن) لم يرد لها ذكرا (الأصنام والهياكل وغيرها) لا فى مراسيمة وعهوده ، ولا فى مراسلاته لاقيال حمير ، ولا إلى تحطيم أو كسر آلهة أو صنم أو وثن ، إلا ما ورد عن على لما أوفده النبى (ﷺ) إلى اليمن أمره أن يحطم القبور المشرفة المرتفعة ويسويها بالأرض ، ويضيف المؤلف فى الصفحة التالية : ومما هو جدير بالملاحظة أن النقوش التى كشفت إلى اليوم لم يوجد بينها ذكر للأصنام التى وود ذكرها فى القرآن الكريم (والمنسوبة إلى اليمن) « كنسر ويعوق ويغوث وسواع وود » وغيرها إلا أنه يوجد فى قرية غيمان محلة تسمى

« يغوث » وإنما جاء ذكر « ود » مصرحا به فى النقوش لا سيما القتبانية وود معناها « الحب » (انتهى كلام الأكوع)(١) . وسنزيد هذا الأمر وضوحا فى الفصل التالى عند الحديث عن التجربة السياسية اليائسة لليمنيين مع اليهودية والمسيحية كمحاولة فاشلة لإنقاذ ما أمكن إنقاذه من بقايا حضارتهم ومدنيتهم المتصدعة .

الدلالات النظرية المقارنة

لاشك فى أن مجمل الحقائق والبديهيات العلمية والعقلية التى استخدمها الإنسان منذ خطواته الحضارية الأولى على هذا الكوكب من أجل التحكم فى طرق حياته وبيئته الطبيعية أكثر فأكثر ، لم تكن حكرا على مجتمع دون آخر ، أو أمة دون أخرى أو جنس دون جنس ، فقد كانت ضرورات الوجود وسنة البقاء التى لاتختلف بالنسبة لكل بنى البشر ، هى المنطلق والدافع الأول لادراك الحدود الدنيا والضرورية من تلك الحقائق والبديهات ، خصوصا ما يتعلق منها بحياة الكهف والصيد وإشعال النار وزرع البذور ونحوه ، كما أن عملية التراكم والنمو لهذه الحقائق قد تختلف نسبتها من مكان لآخر أو من أمة لاخرى ، إلا أن هذه العملية لم تكن هى الأخرى وقفا على حضارة بعينها من الحضارات البارزة فى التاريخ الإنسانى دون غيرها ، سواء كانت يونانية أو رومانية أو فرعونية أو عربية أو هندية أو غيرها ، بل على العكس فإن عمليه التراكم والنمو هذه هى نفسها أساس التكوين الحضارى نفسه(٢) والشىء المهم الذى نريد توضيحه والحديث عنه فى هذه الفقرة هو الاختلاف النسبى والعكسى أحيانا فى عملية إستخدام وتوظيف هذه البديهيات والحقائق العلمية والنظرية المتراكمة والمتاحة فى حياة مجتمع ما بالنسبة لمجتمع آخر ، وكيف بالتالى استخدم ووظف قدماء اليمنيين ما توفر لديهم من حدود لا بأس بها من تراكم ونمو هذه البديهيات والحقائق والمعارف التى مكنتهم من بناء حضارة بارزة المعالم وذات طابع مميز ، فالنار حقيقة علمية

---

(١) محمد الأكوع : اليمن الخضراء مهد الحضارات ، الطبعة الأولى ١٩٧١ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٢) راجع كتابنا المثقفون فى البلاد النامية ، بحث فى الفئات العلاقات الطبقية ، عالم الكتب المصرية ١٩٨٠ ، وبالذات الفصل الأول بصفة عامة .

قديمة ، إلا أن استخدامها فى الطهى وصهر المعادن يختلف جذريا عن استخدامها لحرق جسم الإنسان لنفسه بنفسه حتى الموت تقرباً لآلهات الغيب الوثنية وطمعا فى الفوز برضائها الوهمى ، كما يفعل البوذيون حتى اليوم ، وكذلك الهندسة وفن النحت ومعرفة المقاييس ، يمكن أن تستخدم فى بناء السدود والمدن والحد من كوارث الطبيعة ، ويمكن أن تستخدم فى صنع الآلهات الصنمية المقدسة والقبور والمدافن الحجرية الشاهقة كالأهرامات وصنع أبشع وسائل الخراب والتدمير ، وشتان بين الحالتين التى تستخدم فيهما حقيقة علمية واحدة وثابتة . وتاريخ البشرية كله صور وقرائن لاحدود لها من هذا الطراز حتى يوم الناس هذا ، اليوم الذى يمكننا فيه أن نحول الصحارى إلى جنان مخضرة من خلال الطاقة النووية وهى حقيقة علمية وأن ندمر من خلال نفس هذه الحقيقة وبها ناطحات السحاب فى واشنطن ونيويورك كما فعلنا بالأمس بنفس الأداة فى هوريشيما ونجزاكى فى اليابان .

وإذا كنا نريد أن نضع هنا فرضا مبدئيا نجير لأنفسنا بمقتضاه القول بأن قدماء اليمنيين قد استخدموا الجانب الأعم والأغلب ، مما توفر لديهم من بديهيات وحقائق علمية واجتماعية فى الاتجاه الموجب والأقرب إلى الموضوعية واحترام العقل الإنسانى ومن أجل تحقيق المزيد من تقدمه ورفاهيته بكل تأكيد بالقياس إلى غيرهم ، فإن مايعوزنا من التأكيد على صحة هذا الفرض ، لم يكن أكثر صعوبة ومشقة مما سبق الحديث عنه حول تأكيد صفة شيوع العقلانية وضعف الجانب الاعتقادى كسمة عامة أولى لهذا التراث ؛ بل إن كل ماسبق من تحليل وتمحيص حول السمة الأولى ، هو فى مجمله ومن باب أولى مستند علمى وموضوعى قوى نستطيع أن نختزل ونستنتج من خلاله بصورة جدلية أقوى الأدلة وأكثرها حسما على سلامة وصدق هذا الفرض الأخير .

فبالرغم من أن الحدود التى توصل إليها قدماء اليمنيين فى معارفهم العلمية لم تحدد بعد بشكل نهائى ، وأنها ما تزال تبدو حتى الآن فى حدود هى أقل بكثير فى حجمها وكميتها وتنوعها وارتقائها التجريدى بالنسبة لما عرف عن الفراعنة واليونانيين وغيرهم ، مثل الطب لدى الفراعنه الذى لم

نلحظ له أى إشارة واضحة فى التراث الحضارى اليمنى حتى الآن ، إلا أن هذا العلم الذى بلغ عند الفراعنه حدا ما يزال لغزا حتى الآن ، خصوصا ما يتعلق منه بالتحنيط ومنع المكروبات من دخول الجسم ، الذى ما يزال حداً لم يتجاوز بعد ، بالرغم من ذلك إلا أنه ظل حكرا وسرا من أسرار الأسر الحاكمة وكهنة الدين ، وفى حدود احتياجات هذه الطبقة ، الذى لايجوز إفشاؤه أو استخدامه لعامة الشعب ، وكذلك ظاهرة الفلسفة والتأمل العقلى الحر لكل شىء وفى كل شىء عند اليونان الأمر الذى لم تتضح له قرائن على أى مستوى عند قدماء اليمنيين حتى الآن ، إلا فى حدود مايحقق إنجاز مهام ممارساتهم العملية وشئون حياتهم المختلفة سياسياً واقتصاديا واجتماعيا ، حيث أنه بالرغم من أن تلك الجوانب الإنسانية والعقلية والعلمية المضيئة فى تلك الفلسفة اليونانية ما تزال تعطى بلا انقطاع حتى يومنا هذا فى اتجاهات موجبة ، الا أن بعض الجوانب السلبية التى أستخلصها قدماء فلاسفة اليونان من فلسفتهم المترامية الأطراف لايمكن إغفالها ، خصوصا ما يتعلق بإقرارهم بالأوضاع الإجتماعية والتقسيمات الطبقية للمجتمع اليونانى وغيره من المجتمعات القديمة ، الى فلاسفة فى القمة وأحرار وسياسيين فى الوسط (مواطنين) ثم عبيدا وبرابرة لايختلف وضعهم عن وضع الحيونات وما يملكه الإنسان الحر من متاع مادى فى أسفل السلم الإجتماعى [١] ، وهو ماكان سائداً بالفعل فى المجتمع الآثينى آن ذاك ، وغيره من المجتمعات المجاورة حول البحر الأبيض المتوسط على الأقل فى تلك الحقب القديمة من التاريخ المعروف بالعصور أو المراحل العبودية ، وذلك مع بعض الفوارق النسبية بين ما كان يسود فى الواقع بصورة أوضح من نظم الرق والعبودية ، وبينما كان ينشده فلاسفة اليونان من خلال آرائهم المعروفة فى هذا الصدد ، التى بالرغم من أنها تقر التقسيم الطبقى السابق ولم تستطع أن تقول بغيره ، إلا أنها كانت تمثل خطوة الى الإمام وشكلا أكثر اعتدالا عما كان سائدا بالفعل ؛ ذلك أن أرسطو وأفلاطون فى جمهوريته قد طالب بوضع أسس وعلاقات مثالية بين هذه

---

(١) د . جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية ، دار الكتاب اللبنانى بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٠ ، ص ٣٩ .

الطبقات تسمح بالانتقال من أسفل إلى أعلى ، الأمر الذى لم يكن يسمح به الواقع العملى القائم ، وذلك من خلال مطالبته المثالية بتطبيق الشيوعية الجنسية المنظمة ووضع مراحل للتعليم والاختبارات العلمية ، تتاح من خلالها الفرص لكل الأطفال لعملية الارتقاء الطبقى بحسب قدراتهم العقلية وصولا إلى تكوين طبقة الفلاسفة والحكام من أفضل السلالات السليمة والأكثر ذكاء وعقلا ، ثم طبقة المواطنين الأحرار والجنود ممن لا يستطيعون الإرتقاء إلى طبقة الفلاسفة ، ثم طبقة العبيد والبرابرة وهم عامة الناس ناقصى التكوين بالطبيعة والذين وفرتهم الطبيعة للقيام بالأعمال الجسدية فى الصناعة والزراعة لخدمة الطبقات السابقة وتوفير متطلباتها . (١)

هذا الإستخدام والتوظيف المثالى لنمط التفكير العقلى الحر فى الفلسفة اليونانية تجاه الأوضاع الإجتماعية وتبريرها بمفاهيم عقلية خاطئة واقتراح حلول مثالية غير ممكنة التطبيق وغير صادقة من الناحية العلمية والموضوعية ، قد أدى فى التحليل الأخير الى نتيجة سلبية واضحة تماما ، وهى الإقرار بتكريس الأوضاع الطبقية القائمة على أساس فلاسفة وأرستقراطية تفكر وتحكم فى القمة ، ومواطنين وجنود أحرار لممارسة السياسة والحرب فى الوسط ، وكلا الطبقتين السابقتين تحتقر المهنة وكل أشكال العمل اليدوى الذى أوقف على القاعدة العامة من الناس من العبيد والبربر ، وكان أقصى ما ينشده فلاسفة اليونان العظام هو طلب المساواة فى الظلم لا أكثر وليس ازالة الظلم نفسه .

ولقد كانت مجمل تلك الفلسفات اليونانية هى — كما يقول الدكتور عبد السلام نور الدين — تعبير عن الإحساس المكثف بأن ربيع الحضارة اليونانية قد ولى ، وأن النبرة الاستبدادية الافلاطونية المدثرة فى طيات الحوار لهادىء هى محاولة لانقاذ أثينا فى الخيال ، فى عالم ما فوق الحواس ، هى المقاومة للإنحدار الذى انزلقت فيه الحضارة ، هذه المقاومه التى أخذت

---

(١) راجع كتاب جمهورية أفلاطون الذى نقله إلى العربية « حنا خباز » دار القلم بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٩٦٩ . وكذلك كتاب المنظور العلمى للثقافة : حمود العودى طبعة القاهرة ١٩٧٣ ص ٣٥ .

طابع الفكر الفلسفى الخالص كانت تجسد كل ثراء الحضارة اليونانيه وفقرها فى آن واحد ؛ عقلانيتها وتصوفها ، تفاؤلها النظرى فى صورة اليوتوبيا وتشاؤمها العملى من جراء الإنهزام أمام أسبرطة وتهدم مقومات وجودها(١) .

فبالرغم من أن مثل هذا النمط من التفكير والتفلسف العقلى لم تعرف حتى الآن أية إشارة واضحة عن قرينة مماثلة له لدى قدماء اليمنيين سلبيا كان أم إيجابيا ، إلا أن الأهم من هذا بكثير هو أن كل البقايا والمأثورات التى وقعت بين يدى التاريخ المدروس حتى الآن والمتعلقة بالأوضاع الإجتماعية للمجتمع اليمنى القديم لم يستدل من خلالها على أى شكل من أشكال الرق والعبودية الذى عرفته المجتمعات القديمة والحديثة إلا فى مراحل الضعف والإنحطاط الأحقه وعلى نطاق محدود وهامشى عرضى حتى اليوم(٢) ، وكذلك مبدأ إحتقار العمل ووقفه على فئة أو طبقة محتقرة فى المجتمع من عبيد وأرقاء وأقنان للأرض ونحو ذلك ، مما عرفته المجتمعات الاقطاعية القديمة والوسيطة ، كما أن التقسيم الطبقى للمجتمع اليمنى القديم مايزال غامضا وغير واضح ، وفيه كثير من التداخل بين الفئات الاجتماعية ، وعلى العكس من ذلك فإن المأثورات والقرائن الواقعية المتاحة تؤكد بما لا يدع مجالا للشك على أن قدماء اليمنيين قد جسدوا فى حياتهم احترام العمل والمهنة إلى حد كبير ، ومارسته بحماس كل الفئات والطبقات الاجتماعية بلا إستثناء من القمة إلى القاعدة كجزء لا يتجزأ من حياتهم جميعاً ، بل إنه قد ثبت بأن رابطة العمل كانت هى أساس تكوين الجماعة أو القبيلة التى كانت تسمى « شعب » وليس أواصر القرابة والدم ، فقد ذكر « نيكلوس » عن قدماء اليمنيين فى هذا الشأن ما نصه : بأن الجماعة التى يجمع أفرادها العمل تسمى قبيلة وأنه حتى القبيلة الحاكمة فإنها مكلفة بالعمل فى سبيل الصالح العام وخدمة الدولة ، أى أنها لم تخرج عن اعتبار أن رابطة العمل هو أساس

---

(١) د . عبد السلام نور الدين : المتنبى وسقوط الحضارة ، مقال فى مجلة اليمن الجديد عدد فبراير ١٩٧٨ ، ص ١٢ .

(٢) راجع كتابنا : التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، مركز الدراسات اليمنية ١٩٨٠ ، الفصل الثامن بصفة عامة .

تكوينها ، أو أنها على الأقل مكلفة بالإسهام فى العمل الذى تقوم به القبائل الأخرى فى خدمة الصالح العام ، وأنه لم يعفها مركز الزعامة عن ذلك(١) . ولقد أكد « نيكلوس » وزملاؤه أكثر من مرة وفى أكثر من موضع على حقيقة أن رابطة العمل والإنتاج فى الدول اليمنية القديمة هى أساس تكوين الجماعة أو القبيلة أو الشعب(٢) وهو الاسم الحقيقى الوارد فى النقوش لهذه الجماعات أو الوحدات باسم « شعبن »(٣) ولم يكن الاساس فى ذلك هى روابط الدم والقرابة أو السلالة إطلاقاً ، حيث يؤكد ذلك بقوله بأن : هذه الوحدات الإنتاجية المسماة بالقبيلة كانت عامة فى جميع الدول والامارات اليمنية القديمة ، وقد علمنا أن تركيب القبيلة فى عرف الدول القديمة اليمنية كان على أساس العمل والإنتاج لا على أساس القرابة والدم .(٤) ويؤكد فى موضع آخر قوله : نجد أن إسم الشعب هو عبارة عن اسم القبيلة الزعمية ، هكذا فى لقب ملك « سبأ » و « سبأ وذو ريدان » وملك « قتبان » و « معين » وهلم جرا ، أما الكلمة الدالة على قبيلة فهى فى الأصل كانت تستخدم للتعبير عن نظام خاص ، هذا ما نفهمه من النصوص التى وصلتنا ، ويجب أن لا يتبادر إلى الأذهان أن لفظ قبيلة عبارة عن لفظ يدل على جماعة تجمع

---

(١) نيكلوس : التاريخ العربى القديم ، ص ١٢٦ .

(٢) لقد عقد الدكتور نيكلوس فصلا كاملا فى كتابه التاريخ العربى القديم الذى ألفه بالاشتراك مع العلماء الدكتور « دتلف نيلسن » و«فرتزهومل» و« رودوكاناكيس » و« أدولف جرومان » تحقيق واستكمال وترجمة الدكتور فؤاد حسنين هيكل ، عقد « نيكلوس » فصلا كاملا عن نظام الدولة والمجتمع فى اليمن قبل الميلاد بعنوان : الحياة العامة للدول العربية الجنوبية ، والذى أورده الحداد بالكامل تقريباً وشرحه وأضاف عليه واعتمد عليه بصفة مباشرة فى الحديث عن هذا الجانب فى كتابة الحديث تاريخ اليمن السياسى ، كما يشير إلى ذلك هو بنفسه ، انظر « نيكلوس » التاريخ العربى القديم ص ١٢٦ وكتاب الحداد ص ١٢٢ إلى ص ١٣٥ .

(٣) راجع النصوص القديمة وشرحها فى كتاب مطهر الأريانى « فى تاريخ اليمن » الصادر عن مركز الدراسات اليمنية عام ١٩٧٣ . مع ملاحظة أن كلمة « شعبن » الواردة فى كل النصوص الحميرية القديمة للدلالة على مسميات الجماعات والمناطق هى الكلمة والتعبير الصحيح ، بدلا من كلمة « قبيلة » التى دأب المستشرقون وحذا حذوهم اليمنيون أيضاً فى استخدامها كترجمة لكلمة « شعبن » السابقة بطريقة خاطئة ومخلة تماماً نظراً لما يوجد من فروق جوهرية بين دلالة كلمة جماعة أو شعب وكلمة قبيلة . وانظر تحليلا وافياً لمفهوم كلمة « قبيلة » ومدى إنطباقها على المجتمع اليمنى القديم والحديث فى كتابنا : التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، مركز الدراسات اليمنية ، ١٩٨٠ ، ص ٢٨٩ إلى ٢٩٥ .

(٤) تاريخ اليمن السياسى للحداد ص ١٢٤ (مرجع سابق) .

بينها صلة القرابة والدم ، ليست « القبيلة » هى فروع وأغصان من أسر وأجناس ، ليست هى جدول نسب ، فالحالة الاقتصادية والسياسية هى التى تقرر وظيفة وعمل الجماعة — ويضيف فى نفس الصفحة — وأنه من السهل تسقيمها إلى بطون وأفخاذ حسب حاجة العمل وطبيعة التربة والظروف السياسية والإدارية المحيطة بها ، فهى تنقسم إلى أثلاث وأرباع ، كذلك وجب عليها أن تتحد مع قبيلة أخرى قد تفرضها عليها الظروف وتدعو إليها الحاجة(١) . والشىء المهم المؤكد لهذه الحقيقة التى أوردها « نيكلوس » وزملاؤه عن الأوضاع الإجتماعية القديمة فى اليمن هو أن هذه التقسيمات والوحدات الاجتماعية ما تزال قائمة وثابتة بكل نظامها ووظائفها الاقتصادية والاجتماعية حتى اليوم، فى نطاق العرف الملزم والواجب الاحترام والتمسك به ، فى التقسيمات الاجتماعية وتوزيع أفراد أو سكان المنطقة الواحدة ضمن عدة وحدات جزئية ، حيث تنقسم على أسس إقتصادية وإدارية إلى أثلاث أو أرباع أو أخماس ، وتنظم أعمالها وعلاقاتها الاقتصادية والاجتماعية تجاه نفسها وتجاه الوحدات الأخرى على هذا الأساس ، وتقبل التعديل والتغيير وفق ظروف ومقتضيات معينة يتفق عليها من خلال مواثيق مكتوبة(٢) ، وتتأكد بذلك فكرة الانتماء الفئوى الاجتماعى والجغرافى على هذا الأساس وليس على أساس رابطة الدم والقرابة، وذلك هو النظام العرفى الشائع فى معظم المناطق الشمالية والشرقية حتى الآن ، رغم كل الأوهام والمفاهيم المتخلفة التى استطاعت اليوم أن تمسخ الكثير من الجوانب المشرقة لهذه الحقائق التاريخية وتحيلها إلى نزعات قبلية وعشائرية ممقوتة(٣) .

وإذا ما أضفنا إلى كل ما سبق حقيقة أن تلك البلاد (اليمن القديمة) كما يقول البحاثة جلازر — قد عرفت نظاماً يتكون من مجالس تمثل الشعب تمثيلا نيابياً ، وأن اليمن عرفت نظماً متقدمة للسلطه والتشريعات وإصدار

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٥ .

(٢) أنظر نص رقم ٩١ من الفصل السادس فى كتابنا التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، مركز الدراسات اليمنية صنعاء عام ١٩٨٠.

(٣) أنظر المرجع السابق ص ٢٨٩ إلى ٢٩٥ .

القرارات ونظام الخدمة العسكرية وغير ذلك مما سبقت إليه الإشـــارة ، فإننا نستطيع فى ضوء كل ذلك أن نستخلص كل جوانب وابعاد الحقيقة التى تؤكد حسن استعمال وتوظيف قدماء اليمنيين لما توفر لديهم من حقائق ومعارف طبيعيه واجتماعية فى خدمة المجتمع نفسه ، وبنزعة عقلانيـــة وراديكاليه شديدة الوضوح بالقياس والمقارنة بغيرهم من المجتمعات الحضارية القديمة فى بابل والنيل وآثينا والهند وغيرها من المجتمعات الحضارية القديمة .

كما نستطيع فى ضوء كل ماسبق أن نستخلص مجموعة أخرى من النتائج والحائق الهامة الآتية :

نتائج وإستخلاصات :

(ا) إن قدماء اليمنيين بما توفر لديهم من حدود المعارف النظرية والتجريبية المتواضعة — على مايبدوحتى الآن — إلا أنهم قد أحسنوا استخدامها وتوظيفها فى حياتهم ضمن مفاهيم ونظم أكثر موضوعية وإنسانية ، لايقل عن مدى توفيقهم فى حسن استخدام وتوظيف الحقائق العلمية والطبيعية التى يزخر بها تاريخهم فى خدمة الإنسان ، وضمن مفاهيم عقلانية وعلمانية تعاونية واضحة ومتقدمة(١) .

(ب) إن احترام قدماء اليمنيين للعمل والانتاج ، واعتباره أساس تكوينهم السياسى والاجتماعى ، ربما يكون هو السبب الجوهرى وراء اختفاء أوغياب التنظيم العبودى والرق والقنانة بنفس الأنماط التى عرفتها المجتمعات الاقطاعية القديمة من ناحية ، وشيوع التداخل الطبقى وفكرة الانتماء الاجتماعى العام فى نطاق التنظيم السياسى والاقتصادى والإدارى والجغرافى فقط ، القابل للتغير والتعديل وفقاً لطبيعة الظروف والحاجات المتغيرة من ناحية أخرى ، بعيداً عن الأسس العقائدية والقرابية والعرقية التى كانت تعتمد عليها المجتمعات القديمة فى تقسيماتها الطبقية المغلقة بجانب الأساس الاقتصادى (٢).

---

(١) راجع على محمد عبده : مقال فى مجلة اليمن الجديد عن ظاهرة التعاون اليمنية ص ٤٩ — ٥٦ عدد مارس ١٩٧٧ .

(٢) تاريخ اليمن السياسى للحداد ص ٥٠ ، ٥٥ .

(ج) إن نظاما من السخرة كما يسميه البعض [١] . أو العمل الجماعى على الأصح الملزم سياسياً واجتماعياً لكل فئات الشعب قد أستعيض به فعلا ، بدلا من نظام العبودية والرق والقنانة فى عملية الانتاج والفعل بكل أشكاله ، سواء فى تنفيذ أهم مرافق المجتمع والدولة ، أو ما يعرف اليوم بالهياكل الأساسية للاقتصاد القومى ، من طرقات وسدود ومرافق رى ومزارع وغيرها ، مما يتصل بجوهر المصالح العامة التى لم تكن قط ذات طابع فردى أو ملكية فردية ، لأنه من المستحيل تنفيذ وإقامة مثل تلك المرافق التى انبنى على أساسها الاقتصاد القومى وحضارة المجتمع بأسرها فى نطاق النزعة والملكية الفردية ، فالعمل الجماعى الذى تم من خلاله بناء تلك الأسس والمرافق الاقتصادية والحضارية العامة تحت إشراف الدولة وتنظيمها المباشر ، هو عمل جماعى منظم من أجل مصالح جماعية أيضاً ، ولم يكن سخرة من أجل فرد أو طبقة بعينها . بل لقد ثبت بأن المنتجين المباشرين فى مجال الزراعة وغيرها كانوا يحصلون على عوائد إقتصادية مقابل عملهم ، وبما يكفل تأمين معيشتهم من خلال اقتطاع نسبة معينة من كمية الانتاج نفسها ، قل أوكثر ، وتصير النسبة الأخرى إلى الدولة التى تملك الأرض وليس إلى أفراد أو ملاكين عقاريين [٢] ، كما أن المشتغلين فى الأعمال الانتاجية غير المباشرة مثل إقامة المرافق العامة من سدود وطرقات وغيرها كانوا يحصلون على أجورهم من الدولة فى شكل نقدى أو عينى أو فى شكل إعفاءات من الضرائب المستحقة عليهم . [٣] كما أن الدولة اليمنية القديمة قد فرضت نفسها على التجارة — كما يقول الدكتور جواد على — فجلعت أمر الاستيراد والتصدير فى يدها وأنها نظمت العلاقة بين الدولة والناس ، ثم بين الناس بعضهم مع بعض ، ووضعت التعليمات الدقيقة التى تكفل سلامة أموال

---

(١) راجع سلطان أحمد عمر : نظرة فى تطور المجتمع اليمنى دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٠ .

(٢) راجع نيكلوس فى « تاريخ اليمن القديم » ص ١٤٤ نقلا عن كتاب الحداد ، تاريخ اليمن السياسى ص ١٣٠ .

(٣) تاريخ الحداد ص ٤٣ .

الدولة وأموال الناس على حد سواء (١) .

(د) إن مجمل هذه الخواص والسمات الليبرالية والراديكالية الواضحة فى التفكير والعمل ونوع التكوين السياسى والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية فى عناصر التراث الحضارى اليمنى العامة ، كانت هى النتيجة الضرورية التى استخلصها سكان هذه المنطقة من خلال صراعهم ومعاناتهم المريرة والطويلة من أجل البقاء فى ظروف بيئية وطبيعية غير مستقرة ، والتى من خلالها وبها تمكنوا من فرض أنفسهم على هذه الطبيعة والبيئة الجغرافية القاسية وبناء حضارة زاهرة وعقلانية على أرضها ووديانها وجبالها الشاهقة والوعرة والتى لاتتيح حالة الصراع والآلية التى لاتتوقف مع ظروفهـــا الطبيعية والجغرافية تلك — على نحو ماسبق تحليله فى الفصول السابقة من هذا البحث — لاتتيح أية فرصة لساكنيها للاستطراد والتفكير فى قضاياها مشية من أى نوع ، منفصلة عن جوهر التعامل المباشر مع الواقع ، والتى بدون مثل هذه النزعة ما كان ليتأتى قط بناء حضارة من أى طراز آخر فى هذه المنطقة فى الماضى ، الأمر الذى ما يزال حقيقة كذلك بالنسبة للحاضر والمستقبل .

وهكذا فإن كل هذه الحقائق السياسية والاقتصادية والاجتماعيه فى حياة المجتمع اليمنى القديم والتى جسد من خلالها مجمل علاقاته الإنتاجية المتميزة فى تلك المراحل التاريخية المبكرة لهى الأنعكاس المباشر والتعبير الجدلى المنسجم عن طبيعة القوى الأنتاجية المتميزة فى الطبيعة والواقع المادى ، وهكذا كانت وستظل خصوصيات ومميزات القوى الانتاجية فى المجتمع اليمنى تفرز علاقات إنتاجية ذات مميزات وخصوصيات متميزة أيضا وعلى الدوام .

---

(١) د . جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء السابع ص ١٩٣ إلى ٢٣١ وانظر فى ذلك أيضا تاريخ الحداد ص ٥٣ وما بعدها .